أولاً : - الحضارة لغةً

تلفظ الحضارة بفتح الحاء وكسرها، وهي مشتقة من الفعل حَضَر، ومنه الحضر والحاضرة والحضرة، والحضارة بمعنى المدن والقرى والريف، وسميت بذلك لأن أهلها حضّروا الأمصار التي يكون لهم بها سكن وإقامة، وعليه فالحضارة لغة تعني الإقامة في الحضر خلافاً للبادية.

وقد أشار الشاعر الشريف بن القطامي[1] إلى لفظة الحضارة والبادية بمعناهما اللغوي في قوله:

ومن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا[2]

ومنذ القدم فقد وجدت كلمات عند العرب في معنى البداوة والحضر مثل: الوبر والمدر والحدر والحجر، فالوبر صوف الإبل والأرانب ونحوها من الحيوان الذي يصنع منه البدوي خيامه وملابسه، وتعني أهل البادية ، وقيل أهل الوبر أي أهل البوادي[3]، أما المدر فهو قطع الطين المتماسك، وهو ما يبنى منه في القرى أو في المدن ليعني الحضر، وقيل أهل المدر أي أهل المدن أو الحضر فمثلاً سمى العرب مصر بالمدرة السوداء، كناية عن إنها تتكون من قرى ومدن[4]، كذلك الحدر وهي الأرض المنحدرة التي لا يبنى عليها لتعني البادية[5]، والحجر المدينة، لذا وجدنا في الجزيرة العربية مدن عدة سميت باسم الحجر[6].

ثانياً: - الحضارة اصطلاحاً

هي مجموعة من المنجزات المادية والثقافية التي أنجزها أبناء شعب من الشعوب عبر التاريخ من أجل تحسين مستوى معيشتهم، لذلك فالحضارة ثمرة الجهود الإنسانية التي تتراكم عبر العصور المختلفة ، والتي جاءت معبرة عن تفاعل الإنسان مع البيئة[7].

وهي أيضاً تطلق الآن على كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه، مادة وروحاً، دنيا ودين، أي بمعنى آخر تسلط الضوء على قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور، وهي في تخصيصها بجماعة من الناس أو أمة من الأمم، إنما تمثل تراث كل أمة وخصوصيتها، وهي تقابل الكلمة الأوروبية [8] (Civilization).

أما الحضارة عند ابن خلدون فهي تمثل الجانب المترف من الحضارة ولا يدخل فيه النشاط الديني والخلقي والعقلي إذ يقول "والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه، ومن الصنائع المهيأة للمطابخ

أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الأبنية ولسائر أحوال المنزل .... وإذا ابلغ التأنق هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة " [9].

أما في الغرب فقد ظهر مصطلح "الحضارة الغربية" و "الشرقية " وهو مصطلح حديث أطلقه الأوروبيون وقسموا العالم إلى "غرب" أي أنفسهم "وشرق" وهم أهل آسيا وإفريقية الذي كانوا يستعمرونهم ويستعبدونهم ويعدونهم أقل حضارة منهم.

ويرى "ول ديورانت" إن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي[10].

ثالثاً : - المدنية

وتعني التمدّن أو التمدين ، أي التنعم بالإقامة في المدينة[11] وتعني أيضا الجانب المادي في الحضارة، أي لا تعني السكن في المدن فقط، وهي تعني الانتقال في طريقة العيش من الأساليب القديمة إلى أسلوب جديد أكثر تطوراً وتقدماً من الأسلوب القديم ، ويشمل كل طرائق عيش الإنسان بدءاً بالزراعة والصناعة والتجارة والعمران والخدمات الأخرى، وكل ما يدخل في الجوانب المادية التي تتعلق بحياة الفرد سواء أكان في القرية أو المدينة أو البادية .

والانتقال من الأساليب القديمة في الزراعة والصناعة والتجارة والخدمات الأخرى إلى أساليب حديثة متطورة من أجل توفير الراحة والرفاهية للمجتمع يعدّ مدنية أو تمدناً مثل استخدام الآلات والمكائن الزراعية الحديثة والمبيدات الحشرية والأسمدة الكيمياوية في الزراعة بدلاً من المحراث الخشبي وغيره، واستخدام المكننة في المصانع والتحول من الصناعات اليدوية البسيطة ، وهذا ينطبق على التجارة والخدمات الأخرى[13].

رابعاً : - الثقافة

لغة جاءت ثقف الشيء: أي حذقه، ويقال سرعة التعلم، والثقافة حديدة تكون مع القواس والرمّاح يقوّم بها الشيء المعوج[14].

أما اصطلاحاً: وهي تمثل الجانب الفكري من الحضارة، أي كل ما أنجزه العلماء والمفكرون والأدباء والفنانون ومختلف الاختصاصات الأخرى في تلك الحضارة، من فكر مبدع ومتنوع، وهي تمثل الجانب الأهم في كل حضارة لأنها تمثل مقياس التطور والرقي في المجتمع[15].

خامساً: - عوامل قيام الحضارة

يعد العلاّمة ابن خلدون "ت 808 هـ/1405م" مؤسس فلسفة التاريخ، ويعود الفضل إليه في وضع قوانين العمران البشري، والذي نظر إلى حركة التاريخ من خلال الحضارة، والذي شبه الحضارة بالكائن الحي أو الإنسان الذي يولد ثم ينمو حتى يصل مرحلة الشباب ثم مرحلة الشيخوخة والهرم ثم الموت، كذلك الحضارة، وقد حدد ثلاثة عوامل لقيام كل حضارة وهي:-

1- الاجتماع الإنساني أو العمران البشري

العمران البشري هو الاجتماع الإنساني في مكان ما وهذا التجمع يولد القرى ومن ثم المدن الكبيرة، وكما أن طبيعة الإنسان هو اجتماعي لذا فهو لا يستطيع العيش بمعزل عن الآخرين بقوله: "في أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: "الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو العمران" [16].

ومن المعروف أن أفضل المناطق الملائمة للاجتماع السكاني هي ضفاف الأنهر والمناطق السهلية، ذلك لسهولة التنقل وعامل الزراعة والخدمات والصناعة والتجارة، ولا يمكن أن تكون حضارة بدون التجمع الإنساني، أما أسباب هذا التجمع فهو البحث عن الغذاء وتوفير الملبس والمسكن[17].

2- السلطة

أكد ابن خلدون على ضرورة وجود السلطة بعد الاجتماع الإنساني وتطور المجتمع وتعدد حاجاته، ويصبح تقسيم العمل ضرورياً بين أفراد جنسه، وذلك من أجل تنظيم حياة المجتمع ومنع بعضهم من العدوان على البعض الآخر وسلب حقوقه وحتى لا يأكل القوي الضعيف حيث يذكر.

"إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه، وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع "سلطة" يوقف بعضهم عن بعض ، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك "[18].

أي أن المجتمع لا يستقيم إلا بوجود حاكم عادل في الدولة ، وهو المسؤول عن الرعية يقودهم في السراء والضراء ويراقب أحوالهم ويرفع الحيف عنهم ويبعد العدو عن حدودهم، ويقيم الحد على مَن خالف منهم ويقرب من تعاون وكان ولاؤه للدولة[19].

3- **العصبية**

جاءت كلمة العصبية من الفعل عَصَبَ، وتعني الشدّ والربط[20]، وتطلق على الروابط القوية بين أبناء القبيلة الواحدة والنهوض في مناصرة ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم سوء أو يصيبهم مكروه، والأصل فيها قرابة النسب الذي يظهر بشكل واضح بين القبائل البدوية لأنها بعيدة عن الاختلاط والفساد حيث يذكر ابن خلدون:

"أن أهل العصبية هم عون لصاحب الدولة أثناء قيامها وهم مناوؤون له أثناء تغلب الترف **على طبائع أهلها، والعصبية تنتج جاهاً وسلطاناً وشرفاً**، واذا قويت العصبية ظفرت بالرئاسة، لأن صاحب العصبية يستطيع بلوغ هدفه في الملك اذا كافأت عصبيته بقوتها الدولة في هرمها ولم يكن لها مانع من أولياء الدولة " [21].

سادساً :- عوامل انهيار الحضارة

يرى ابن خلدون أن الحضارة لها عوامل لقيامها وعوامل لضعفها وانهيارها لتظهر حضارة أخرى من جديد، وهنا يصور لنا ان الحضارة مثل الكائن الحي تمر بثلاث مراحل هي الطفولة – الشباب – الشيخوخة – ثم الموت إذ تمر الدولة بثلاثة أجيال كل جيل عمره أربعون سنة وهي كالآتي :

1- **الجيل الأول** : ما زالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوطنها من شظف العيش والبسالة **حيث يذكر " فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم، فحدّهم مرهف، وجانبهم** مرهوب، والناس لهم مغلوبون "[22].

2- **الجيل الثاني: تتحول حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى** الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى الانفراد به بقوله "ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتنكر صورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع "[23].

3- **الجيل الثالث**: ينسى عهد البداوة والخشونة، ويفقد حلاوة الفرد والعصبية، ويبلغ فيهم **الترف غاية بقوله " فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العزّ والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنَّقوه (أي تنعموا به)** من النعيم ونضارة العيش ، فيصيرون عيالاً على الدولة" [24].

ومن الباحثين من يرى أن نهاية الحضارة هي بداية لحضارة أخرى جديدة تظهر بعدها، ومنها الحضارة الإسلامية التي بلغت أوجها في القرنين الرابع والخامس الهجري ثم تدهورت لأسباب من الضعف السياسي الذي أصاب الدولة الإسلامية بسبب الفتن الداخلية وتوقف الفتوحات الإسلامية وسيطرة المتغلبين على أطراف الدولة البعيدة وضياع الأندلس، وظهور الأتراك على الساحة السياسية منذ العصر العباسي الثاني إضافة إلى الغزو الصليبي على الوطن العربي .

ويأتي بعدها العامل الاقتصادي، فمن المعروف أن الثروة ضرورة لنمو الحضارة، فقد كان بيد المشرق الإسلامي وحده في العصور الوسطى زمام اقتصاديات العالم، فهو مصير التجارة العالمية، وكانت أوروبا في العصور الوسطى تعزف عن التجارة، ولكن لسوء توزيع الثروة، وظهور الإقطاع، وحدوث الأزمات الاقتصادية وكثرة الفتن السياسية وتشظي الدولة العربية الإسلامية إلى دويلات عدة ضعيفة متناحرة، ساهمت في ضعف الدولة الاقتصادي وانهيار مالية الدولة[25].

وصادف هذا ظهور المغول العنصر الذي هاجم الدولة العربية الإسلامية وخرّبها ، وكان إعمارها يحتاج إلى سنين طويلة لكي تعود إلى ما كانت عليه، ولولا صمود المماليك في مصر أمام تخريب المغول وانتصارهم عليهم في موقعة عين جالوت[26] سنة 658هـ/1258م لأمتد خراب بلاد المسلمين إلى المحيط الأطلسي[27].

وأخيراً كان لظهور البارود واستخدامه من قبل الأوروبيين أثره بحيث تمكنوا من السيطرة على البلاد وطرق التجارة العالمية[28].

سابعاً :- مفهوم الحضارة الإسلامية

ويقصد بها الشعوب والأمم جميعها التي تكلمت العربية، وعاشت في دار الإسلام في ظل حكم الخلافة الإسلامية بصرف النظر عن الجنس أو الدين، لذلك يدخل فيها مع العرب الفرس والمغاربة "البربر"، ومع المسلمين النصارى واليهود والصابئة[29].

ثامناً:- أسس الحضارة الإسلامية

قامت الحضارة على عنصرين رئيسين هما : 1- العرب 2- سكان البلاد المفتوحة.

1- **العرب :**

هم سكان الجزيرة العربية، وسميت العربية استناداً إلى اللغة التي يتكلمها سكانها حيث